

الدبلوماسية بين السرية والعلنية: من مفاوضات الغرف المغلقة إلى رحاب المؤتمرات

Diplomacy Between Secrecy and Openness: from Closed-Doors Negotiation to the Sphere of International Conferences.

شكاف ابتسام فاطمة الزهراء *

المركز الجامعي – مغنية، الجزائر

i.chekkaf@un-maghnia.dz

- تاريخ الإرسال: 2025/11/06 - تاريخ القبول: 2025./12/22 - تاريخ النشر: 2025/12/28

الملخص: مرّت الدبلوماسية بمسار تطوري انتقلت خلاله من الطابع السري الذي ميّز المفاوضات المغلقة إلى أسلوب علني أكثر انفتاحا وشفافية يعكس تغير طبيعة العلاقات الدولية وتزايد الحاجة إلى الحوار والتعاون بين الدول في إطار المؤتمرات واللقاءات متعدّدة الأطراف بما يعزّز الثقة ويحترم السلم والمصالح المشتركة.

الكلمات المفتاحية: الدبلوماسية، السرية، العلنية، مفاوضات الغرف المغلقة، المؤتمرات الدولية.

Abstract: Diplomacy has undergone an evolutionary process through which it shifted from the secret nature that characterized closed-door negotiation to a more open and transparent approach, this transformation reflects the changing nature of international relations and the growing need for dialogue and cooperation among states within the frame work of conference and multilateral meeting, thereby strengthening natural trust and serving peace and common interests.

Keywords: diplomacy- secrecy openness- closed-door negotiation- international conference.

* المؤلف المرسل: شكاف ابتسام فاطمة الزهراء .

مقدمة:

تعدّ العلاقات بين الدول واقعا راسخا لا يمكن تجاهله، فهي تشكل الإطار الذي تدار فيه المصالح المشتركة والصراعات المحتملة، وقد تتسم هذه العلاقات أحيانا بالانسجام والتوازن، لكنّها لا تخلو من حالات التنافر والتعارض التي قد تتطوّر إلى نزاعات تؤثر على استقرار النظام الدولي. ومع تكرار هذه الأزمات وتعقيدها، تصبح الخسائر البشرية والمادية الناتجة عنها كبيرة إلى درجة يصعب القبول بها كأمر طبيعي في سياق العلاقات الدولية، ومن هنا، ومع تجريم استخدام القوة في تسوية الخلافات بين الدول، برزت الحاجة إلى بدائل سلمية وفعالة لاحتواء النزاعات، فكانت الوسائل الدبلوماسية من أقدم وأهمّ الآليات التي اعتمدها المجتمع الدولي، نظرا لجذورها العميقة في الفكر السياسي الإنساني وقدرتها على تحقيق التفاهم دون اللجوء إلى العنف¹.

في خضم التحولات التي تشهدها الساحة الدولية، عدّت الدبلوماسية ركنا محوريا في إدارة شؤون الدول ومعالجة القضايا المشتركة بينها، فهي الوسيلة التي تعتمد لتقريب المواقف وتجاوز تضارب المصالح وتحقيق التفاهم بين مختلف الأطراف، كما تمثل الإطار الأمثل للحفاظ على السلم والأمن على المستويين الإقليمي والدولي، وضمان حماية مصالح الدول والأفراد على حدّ سواء².

وتعدّ الدبلوماسية في محيط العلاقات الدولية بمثابة القوة الدافعة للحياة السياسية بين الأمم، إذ تجسد روح التفاعل والتواصل في المجتمع الدولي، بينما تشكل بالنسبة لكل دولة أداة فعالة تمكنها، متى أحسن توظيفها، من بلوغ أهدافها وتحقيق ما تصبو إليه من مصالح ومكاسب³.

تعتبر الظاهرة الدبلوماسية في جوهرها ظاهرة اجتماعية، تتسم بالمرونة والتطور المستمر تبعا لتحولات المجتمع الدولي. وقد مرّت الدبلوماسية بعدّة مراحل تاريخية، إذ كانت في بدايتها مؤقتة وغير مستقرة، ثمّ تطوّرت تدريجيا نحو الثبات والانتظام بظهور الدبلوماسية الدائمة. ومع مرور الزمن، تحولت من طابعها

¹ - خضر ياسين الفانسي، الأثر الدبلوماسي والسلمي، وفاعليته في تسوية النزاعات الدولية، دراسة في ضوء القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة، المركز الأكاديمي للنشر، الإسكندرية، 2020، ص 8.

² - وليد عمران، الوسائل المنظمة للعلاقات الخارجية، - التمثيل الخارجي والمعاهدات - ، مذكرة ماجستير، تخصص: قانون دولي عام، كلية الحقوق والعلوم السياسية، قسنطينة، 2013، ص 15.

³ - علي صادق أبو هيف، القانون الدبلوماسي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 2005، ص 87.

الثنائي إلى تعددية الأطراف، ومن ممارسة عرفية غير مقننة إلى نظام قانون منظم، كما انتقلت من الدبلوماسية السرية المغلقة إلى مرحلة الدبلوماسية العلنية⁴، التي تشكل محور دراستنا.

فالدبلوماسية السرية تقوم أساساً على مفاوضات تجري بعيداً عن أعين وسائل الإعلام والرأي العام، ويُحاط مضمونها ونتائجها بالسرية التامة، بهدف تسهيل التوصل إلى حلول سريعة في القضايا الحساسة بعيداً عن أي ضغط خارجي. أما الدبلوماسية العلنية، فهي تقوم على مبدأ الشفافية والإفصاح، إذ تتبادل المعلومات والبيانات بين الدول بشكل رسمي مفتوح، وتنتشر التصريحات والاتفاقيات للعموم، بما يعزز الثقة والتعاون المتبادل، ويسمح للدول بإظهار مواقفها بوضوح أمام الرأي العام الداخلي والخارجي.

إنّ هذا الانتقال من الدبلوماسية التقليدية القائمة على المفاوضات السرية إلى الدبلوماسية الحديثة القائمة على العلنية، يبرز التحول الجوهرى في وظائف الدبلوماسية المعاصرة التي لم تعد حكراً على النخب السياسية، بل أصبحت أداة مفتوحة أمام الرأي العام والإعلام، ومجالاً لتكريس مبادئ التعاون والثقة بين الدول.

استناداً إلى ما تقدّم، تتجلى إشكالية هذه الدراسة في التساؤل حول كيفية تحقيق التوازن بين النموذجين المتباينين للدبلوماسية، السرية والعلنية خاصة في ظل المراحل المتعاقبة التي مرّت بها الممارسة الدبلوماسية عبر التاريخ؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية، سيتمّ تقسيم الدراسة إلى محورين رئيسيين:

أولاً: أصل ومفهوم الدبلوماسية.

ثانياً: مراحل تطور الدبلوماسية والانتقال من السرية إلى العلنية.

1- أصل ومفهوم مصطلح الدبلوماسية:

من تتبع الجذور اللغوية والتاريخية لمفهوم الدبلوماسية يقتضي العودة إلى المصادر القديمة التي تناولت نشأة هذا المصطلح وتطوّره من حيث الدلالة والاستخدام، فقد تعدّدت المقاربات، وفي تعريف الدبلوماسية، فهناك من ربطها بالأشخاص الذين يمارسونها ويجسدونها عملياً، في حين ركز آخرون على

⁴ - محمد عبد الكريم حسن عزيز، مبادئ القانون الدستوري، ط1، مركز الدراسات العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2017، ص 10.

الغاية والوظيفة التي تؤديها في العلاقات الدولية، بينما ذهب اتجاه ثالث إلى الجمع بين هذين المنظورين، معتبرا أن مفهوم الدبلوماسية لا يكتمل إلاّ بفهم كل من العنصرين البشري والوظيفي معا⁵.

1.1- أصل كلمة الدبلوماسية:

تعود كلمة " الدبلوماسية" إلى الأصل اليوناني "دبلوما" (Diploma)، المشتقة من الفعل "دبلو" (Diploum) بمعنى "يطوي" أو "يطوي الشيء على نفسه". وقد كان هذا المصطلح يستخدم للدلالة على الوثيقة أو الشهادة الرسمية المطوية التي يمنحها أصحاب السلطة لمبعوثهم في علاقاتهم المتبادلة، وكانت تخول حاملها بعض الامتيازات الخاصة أثناء أداء مهمته⁶.

ومع انتقال المفهوم إلى الحضارة الرومانية، اكتسب مدلولاً أكثر تحديداً، إذ أصبح يشير إلى الوثيقة الرسمية التي تتضمن هوية المبعوث، وطبيعة المهمة المكلف بها، والتعليمات الصادرة بشأنها من الحاكم، مع ما يرافق ذلك من توصيات تتعلق بحسن استقباله وتأمين تنقله بين الأقاليم المختلفة⁷.

كما تطوّرت الكلمة لاحقاً لتكتسب بعداً معنوياً يتعلّق بطباع المبعوث الدبلوماسي نفسه، ما ينبغي أن يتمتع به من لباقة ومرونة في التعامل، بل أحيانا انتقلت الكلمة من معناها السلبي للإشارة للشخص ذي الوجهين⁸ الذي يتعامل بمجاملة زائدة ومكر سياسي، وهي الدلالة التي تقابلها في اللاتينية كلمة Depliorae.

أمّا في اللغة العربية، فلا توجد ترجمة حرفية دقيقة تقابل مصطلح "الدبلوماسية" إذ يعدّ لفظا دخيلا استعمل مع تطور الفكر السياسي الحديث، وقد عبّر العرب القدماء عن الممارسة الدبلوماسية من خلال كلمتين أساسيتين:

⁵ - عبد الفتاح علي الرشدان، محمد خليل المومن، أصول العلاقات الدبلوماسية والقنصلية، ط1، المركز العالمي للدراسات السياسية، الأردن، 2005، ص 15.

⁶ - بدر شنوف، محاضرات في قانون العلاقات الدولية، العلاقات الدبلوماسية والقنصلية، إصدارات عبر التحولات القانونية الدولية وانعكاساتها على التشريع الجزائري، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة الشهيد حمه لخضر، الوادي، 2022، ص 6.

⁷ - علي حسين الشافي، الدبلوماسية، نشأتها وتطورها وقواعدها، دار الثقافة، الأردن، 2009، ص 28.

⁸ - محمد عبد الكريم حسن عزيز، المرجع السابق، ص 44.

الأولى: "كتاب"، التي كانت تطلق على الوثائق والمراسلات الرسمية المتبادلة بين أصحاب السلطة، وتحمل لصاحبها صفة شرعية وتضمن له الأمان أثناء أداء مهمته⁹.

والثانية: "السفارة"، المشتقة من الفعل سفر بمعنى الانطلاق أو التوجه في مهمة، وهي الأقرب إلى المفهوم الحديث للبعثة الدبلوماسية، وفي حديث عليّ كرم الله وجهه أنّه قال لعثمان رضي الله عنه: "أنّ الناس قد استسفروني بيننا وبينهم أي جعلوني سفيرا أو يقال سفرت بين القوم إذ سعت بينهم في الإصلاح¹⁰.

ومع مرور الزمن واتساع نطاق العلاقات بين الدول، استقرّ استخدام مصطلح "الدبلوماسية" في اللغة العربية كما في اللغات الأخرى، ليصبح تعبيرا جامعاً عن مجموع الوسائل والأساليب التي تدار بها العلاقات الدولية في إطار من التنظيم الرسمي والاعتراف المتبادل¹¹.

وفي السياق المعاصر، لم يعد المصطلح يقتصر على النشاط التمثيلي بين الدول فحسب، بل اتسع ليشمل مختلف صور التواصل السياسي والاقتصادي والثقافي بين الفاعلين الدوليين، سواء كانوا دولاً، أو منظمات دولية، أو من فواعل غير حكومية. وبهذا المعنى تعدّ الدبلوماسية اليوم منظومة متكاملة من القيم والأساليب التي تسعى إلى تحقيق التوازن بين مصالح الدول وضمان استقرار النظام الدولي.

2.1- مفهوم مصطلح الدبلوماسية:

اختلف فقهاء القانون الدولي العام في تحديد المعنى الدقيق لمصطلح الدبلوماسية، ويعود هذا التباين إلى اختلاف خلفياتهم الفكرية والثقافية وتوجهاتهم العلمية، فضلاً عن تنوع التجارب التاريخية والسياسية التي تأثروا بها، فالدبلوماسية ليست مفهوماً جامداً، بل تتعدّد دلالاتها بتعدّد الزوايا التي ينظر منها إليها، بين من يراها فناً ومهارة شخصية، ومن يعتبرها علماً ومؤسسة رسمية لنظام العلاقات بين الدول.

⁹ - مايا الدباس، ماهر مهندي، العلاقات الدبلوماسية والقنصلية، منشورات الجامعة الافتراضية السورية، سوريا، 2018، ص 6.

¹⁰ - سهيل سحن الفتلاوي، القانون الدبلوماسي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الأردن، 2020، ص 71.

¹¹ - محمد قسيمة، ظروف تطور الدبلوماسية والقواعد المنظمة لها، مجلة الدراسات والبحوث القانونية، جامعة محمد بوضياف، مسيلة، مجلد 6، ع.2، 2021، ص 272.

أ- تعريف الدبلوماسية في الفقه الغربي:

ذهب عدد من المفكرين الغربيين إلى تعريف الدبلوماسية من منطلقات مختلفة، إذ رأى بعضهم أنها فنّ التعامل والعقلانية في إدارة العلاقات الدولية، بينما اعتبرها آخرون نظاماً مؤسسياً يقوم على قواعد قانونية وإجرائية محدّدة.

فقد عرّف أحد أبرز فقهاء العلاقات الدولية الدبلوماسية بأنها استخدام الحكمة والمرونة في إدارة الشؤون الرسمية بين الدول ذات السيادة¹²، وهو تعريف يبرز الجانب الشخصي الدبلوماسي وما يجب أن يتحلّى به من صفات نفسية وأخلاقية تمكنه من تمثيل بلده بكفاءة في المواقف الحساسة.

كما تناولها فقهاء آخرون باعتبارها علماً وفناً لتمثيل الدول والتفاوض باسمها مع توسيع نطاق المفهوم ليشمل فئتين رئيسيتين¹³:

● الفئة الأولى: الأشخاص القائمون بالعمل الدبلوماسي سواء في البعثات الخارجية أو في الإدارات المركزية لوزارة الخارجية.

● الفئة الثانية: الوظيفة أو المهمة ذاتها، أي مجموع الأعمال والإجراءات التي يباشرها الدبلوماسي في سبيل تحقيق أهداف دولته.

ومن جهة أخرى، نظر بعض شراح القانون الدولي العام إلى الدبلوماسية بوصفها إطاراً شاملاً لرعاية المصالح الوطنية في السلم والحرب على حدّ سواء، بل اعتبروها التجسيد العملي للقانون الدولي العام¹⁴، لما تتضمنه من قواعد تنظم التواصل بين الدول وتحدّ من احتمالات النزاع.

¹² 1. Ernest SATOW, guide to diplomate pratice, 1958, p 1.

نقلا عن محي الدين جمال، قانون العلاقات الدبلوماسية والفصلية، ط1، منشورات بغداد، الجزائر، 2013، ص 25.

¹³ RIVER, principes de droit des gens, 1986, p 432.

نقلا عن عبد العزيز محمد سرحان، قانون العلاقات الدبلوماسية والفصلية، دراسة تحليلية في الفقه والقضاء الدوليين، مصر، 1986، ص 6.

¹⁴ 2. Pradere PODEREN, cour du droit diplomatique, 1988, p 2.

نقلا عن محي الدين جمال، المرجع السابق، ص 23.

أمّا الاتجاه الواقعي في الفكر الدبلوماسي البريطاني، فقد ركّز على كون الدبلوماسية آلية عملية لإدارة العلاقات الدولية عبر المفاوضات والاتصالات الرسمية، حيث تعدّ المفاوضات جوهر النشاط الدبلوماسي وأداته الرئيسية في تسوية الخلافات وبناء التحالفات¹⁵.

كما نجد في بعض المراجع الغربية أنّ الدبلوماسية تفهم أيضا باعتبارها عملية تنظيمية لإدارة العلاقات الدولية من خلال ممثلي الدول، سواء كانوا سفراء أو مبعوثين خاصين، وهي بهذا المفهوم تجمع بين الطابع المؤسسي والفني للممارسة الدبلوماسية¹⁶.

يتضح من مجمل هذه التعريفات أنّ مفهوم الدبلوماسية قد تجاوز الإطار الضيق الذي كان يُقصرها على المفاوضات الرسمية، ليصبح مفهوما مركبا يجمع بين الفنّ والمهارة من جهة، والعلم والتنظيم من جهة أخرى، فالدبلوماسي الناجح لم يعد مجرد ناقل للرسائل أو منفذ للتعليمات، بل أصبح عنصرا فاعلا في صياغة السياسات الخارجية وصناعة القرار الدولي، كما أنّ الدبلوماسية الحديثة باتت تعكس صورة الدولة وقيمها في الساحة الدولية، وتشكل وسيلة لتكريس حضورها وتأثيرها ضمن النظام العالمي المعاصر.

ب- تعريف الدبلوماسية عند فقهاء العرب:

ساهم عدد من فقهاء العرب في توضيح مفهوم الدبلوماسية ورفع الغموض الذي كان يحيط به، مستندين في ذلك إلى أصول القانون الدولي العام وإلى خصوصية الفكر السياسي العربي، وقد تنوعت التعاريف التي قدّمها الفقه العربي باختلاف الزوايا التي تناول منها الباحثون هذا المفهوم، غير أنّ معظمها التقت حول اعتبار الدبلوماسية أداة لتنظيم العلاقات بين أشخاص القانون الدولي في إطار من القواعد والأعراف الراسخة.

فقد عرّف أحد الفقهاء الدبلوماسية بأنها مجموعة من القواعد والمبادئ الدولية والإجراءات الشكلية التي تُعنى بتنظيم العلاقات بين الدول والمنظمات الدولية وممثليها الرسميين، مع تحديد حقوقهم وواجباتهم

¹⁵ - Harold NICOLSON, diplomatie, 1984, p 16.

¹⁶ نقلا عن غازي حسين صبري، الدبلوماسية المعاصرة، دراسة قانونية، الدار العلمية الدولية للنشر والتوزيع، عمان، 2002، ص 13.
¹⁶ - رشيد أوشاعري، قانون العلاقات الدولية، محاضرات أُلقيت على طلبة السنة الثالثة، قانون عام، كلية الحقوق، جامعة محمد بوقرة، بومرداس، 2016 - 2017، ص 9.

وشروط ممارستهم لمهامهم وقلقا لما يقرره القانون الدولي، كما تتضمن هذه القواعد الأصول المتبعة في المفاوضات الدولية، وعقد المعاهدات، والتوفيق بين المصالح المتعارضة للدول.

بينما يرى اتجاه آخر أنّ الدبلوماسية هي الوسيلة التي يستخدمها أشخاص القانون الدولي لإقامة علاقات ودية وسلمية فيما بينهم، بما يحقق التقاهم المتبادل ويحدّ من احتمالات النزاع والتصادم في المصالح، بغض النظر عن طبيعة هذه المصالح أو أطرافها¹⁷.

وقد اعتبر بعض الفقهاء ومنهم الدكتور عداد البكري، أنّ الدبلوماسية عملية سياسية تمارسها الدولة في إطار تنفيذ سياستها الخارجية، وهي أداة للتعامل مع الدول والمنظمات الدولية الأخرى بما يضمن تحقيق مصالحها الوطنية ضمن النظام الدولي القائم¹⁸.

كما يستعمل المصطلح أحيانا للدلالة على الوظيفة الدبلوماسية ذاتها التي تتطلب من القائم بها صفات شخصية متميّزة، كالحكمة والخبرة والقدرة على التواصل والإقناع¹⁹. إذ يقال عن الشخص "دبلوماسي" إذا تحلى باللباقة والمرونة وبعد النظر في معالجة القضايا المعقدة.

ومن زاوية أخرى ينظر إلى الدبلوماسية بوصفها آلية وقائية تهدف إلى تجنب نشوب النزاعات بين الأطراف، واحتوائها إن وجدت، ومنع تصاعدها إلى مستوى الصراع المسلح أو توسيع نطاقه، وهو ما يعكس البعد الوقائي والإنساني في الممارسة الدبلوماسية²⁰.

أمّا بعض المفكرين العرب، ومنهم علي حسين الشامي، فقد قدّموا تعريفا أكثر شمولاً، حيث اعتبروا الدبلوماسية علماً وفناً لإدارة العلاقات الدولية بين أشخاص القانون الدولي، وهي المهنة التي يمارسها الممثلون الدبلوماسيون في إطار العلاقات الخارجية بين الدول والشعوب²¹.

ويستشهد من التاريخ العربي الإسلامي بمقولة معاوية بن أبي سفيان الشهيرة: "لو أنّ بيني وبين الناس شعر ما انقطعت، إن أرخوا شددتها وإن شدّوها أرخيتها". وهي تعبير رمزي بليغ عن جوهر

17 - سموحي فوق العادة، الدبلوماسية الحديثة، ط1، دار البيضة، دمشق، 1973، ص 20.

18 - عدنان البكري، العلاقات الدبلوماسية الفصليّة، دار الشرع للنشر، الكويت، 1985، ص 9.

19 - فاضل زكي محمد، الدبلوماسية بين النظرية والتطبيق، ط3، مطبعة شفيق بغداد، 1973، ص 9.

20 - بطرس غالي، الدبلوماسية الوقائية وضع السلم وحفظ السلم، كلية السياسة الدولية، القاهرة، ع. 10، 1992، ص 319.

21 - علي حسين الشامي، الدبلوماسية، نشأتها وتطورها وقواعدها ونظام الحصانات والامتيازات الدبلوماسية، دار العلم، 1990، ص 30.

الدبلوماسية القائمة على المرونة والدقة في التوازن، بما يضمن استمرار العلاقات وعدم انقطاعها حتى في أحلك الظروف²².

وانطلاقاً من مجمل هذه التعريفات، يمكن القول أنّ الفقه يجمع على أنّ الدبلوماسية هي علم وفنّ إدارة العلاقات الدولية بين مختلف الفاعلين في المجتمع الدولي، من خلال الممثلين الرسميين للدول، وفق ما تقتضيه قواعد القانون الدولي والعرف الدولي، فهي تجمع بين الجانب العلمي القائم على المبادئ والقواعد القانونية، والجانب الفني الذي يتطلب مهارة التعامل، ودقة الملاحظة، والقدرة على الإقناع والتأثير في مسار الأحداث خدمة لمصالح الدولة وحفاظاً على السلم الدولي²³.

2- مراحل تطور الدبلوماسية من السرية الكلاسيكية إلى العلنية المعاصرة:

عرفت الدبلوماسية منذ نشأتها مساراً متطوراً ومتغيراً بتغير طبيعة العلاقات بين مختلف الكيانات السياسية، فليست الدبلوماسية نتاجاً لحظة زمنية محدّدة، بل هي حصيلة تطور طويل انتقل فيها التعامل بين الدول من الأساليب البسيطة والسرية إلى أشكال أكثر تنظيماً وعلنية، وقد كانت البدايات الأولى تتسم بالسرية المطلقة، حيث كانت المفاوضات تُجرى في الخفاء بين الحكام والرسول لتفادي الضغوط الداخلية والخارجية، غير أن توسع العلاقات الدولية وتزايد ترابط المصالح بين الشعوب فرض واقعاً جديداً، أدّى إلى بروز دبلوماسية أكثر انفتاحاً وشفافية تقوم على التواصل العلني والمفاوضات الجماعية والمؤتمرات الدولية، ولا يمكن الحديث عن هذه الطفرة الدبلوماسية المتمثلة في الانتقال من الدبلوماسية السرية إلى العلنية، إلّا من خلال اتباع منهج تاريخي يقوم على تتبع مختلف المراحل والعصور التي مرّت بها الدبلوماسية عبر الزمن²⁴.

²² - يحي صعيدي، الوظيفة الدبلوماسية ودورها في تفعيل العلاقات الدولية، كلية الصراط، كلية العلوم الإسلامية، جامعة يوسف بن خدة، الجزائر 1، ع.4، 2004، ص 351.

²³ - بدر شنوف، المرجع السابق، ص 10.

²⁴ - خضر ياسين الفانسي، المرجع السابق، ص 33.

1.2- الدبلوماسية السرية:

عرفت الدبلوماسية في بداياتها طابعا يغلب عليه السرية والتكتم، حيث كانت المفاوضات تجري في الخفاء بين الملوك والحكام عبر مبعوثين خاصين، ويمكن تتبع هذه المرحلة من خلال عدّة نماذج حضارية شكلت النواة الأولى للفكر والممارسة الدبلوماسية.

- الدبلوماسية في العصور القديمة:

تعدّ العصور القديمة البداية الحقيقية لظهور الممارسة الدبلوماسية، إذ بدأت الجماعات آنذاك في ابتكار وسائل التفاهم وتجنب الصراعات عبر التفاوض وتبادل المبعوثين. اتسمت هذه الجهود بالبساطة والسرية، حيث كانت المراسلات توجه بين الحكام مباشرة أو عبر رسل يحملون وثائق مختومة تتضمن أوامر أو اتفاقات. وقد برزت في هذا السياق مجموعة من الحضارات التي أسست أولى أشكال الاتصال الدولي، وفي مقدمتها الحضارة الفرعونية وحضارات الرافدين واليونان والرومان، إذ ساهمت تجاربها في إرساء الأسس الأولى للفكر الدبلوماسي الذي تطور تدريجيا مع الزمن.

- الدبلوماسية في حضارات الشرق الأدنى القديم (حضارة الفراعنة وحضارة الرافدين):

عرفت منطقتي وادي النيل وبلاد الرافدين أقدم أشكال الممارسة الدبلوماسية في التاريخ، إذ تميّزت العلاقات بين هاتين الحضارتين بالتقلب بين فترات الصراع العسكري وأوقات السلم والتعاون. ورغم المنافسة بينهما، فإنّ حاجتهما المتبادلة في مجالات التجارة خلقت نوعا من التواصل الدائم، ما جعل الاتصال الدبلوماسي بينهما أمرا لا غنى عنه.

وفي مصر القديمة، عمل الفراعنة على تطوير أدوات التواصل الخارجي بما يتناسب مع متطلبات العصر، خاصة بعد توسع نفوذ حضارة الرافدين في المنطقة، فقد استخدم المصريون اللغة البابلية والخط المسماري في مراسلاتهم الرسمية، لما كانت تمثله اللغة البابلية آنذاك من وسيلة تواصل دبلوماسية مشتركة بين الممالك القديمة. وقد كشفت الوثائق الأثرية عن تبادل رسائل بين فراعنة الأسرة الثامنة عشرة (حوالي 1550 - 1292 ق.م) وملوك بابل والحيثيين وسوريا وفلسطين، تضمنت اتفاقيات بلغ عددها أكثر من ستة عشرة وثيقة.

ومن أبرز هذا التفاعل الدبلوماسي معاهدة قاش" التي أبرمت بين الإمبراطوريتين المصرية والحيثية بعد سلسلة من النزاعات، وتعدّ أول معاهدة سلام مكتوبة في التاريخ، نقشت نصوصها على ألواح فضية باللغتين الهيروغليفية والبابلية المسمارية، واحتوت على مقدمة وبنود وخاتمة تحدّد التزامات الطرفين وتؤكد احترام كل طرف لسيادة الآخر، كما كرس مبدأ الحصانة الدبلوماسية للمبعوثين وأهمية الوفاء بالعهد²⁵.

علاوة على المعاهدات، اعتمدت تلك الحضارات وسائل أخرى لتوطيد العلاقات مثل الزواج السياسي الذي كان يستخدم كأداة لتحقيق التقارب بين الملوك، وخلق روابط تؤدي إلى استقرار العلاقات بين الدول، بحيث ينظر إليه كاتفاق صداقة دائم أكثر منه زواجا شخصيا. كما لعب تبادل الهدايا دورا دبلوماسيا مهما، إذ كانت الهدايا الثمينة كالتحف والمعادن النفيسة والحيوانات النادرة تعبيرا عن الاحترام والرغبة في استمرار التعاون.

وقد عرفت تلك الحقبة أيضا شكلين من التمثيل الدبلوماسي: التمثيل المؤقت - وهو الغالب - الذي يتم بإرسال مبعوثين لأداء مهمة محدودة لفترة معينة، والتمثيل الدائم في بعض الحالات التي اقتضت وجود اتصال مستمر بين الملوك، وهو ما يدلّ على وعي مبكر بأهمية التواصل السياسي المنتظم في إدارة العلاقات بين الدول²⁶.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الدبلوماسية في هذه المرحلة كانت تتسم بطابعها السري، إذ كانت المفاوضات تجري بعيدا عن العامة، وينظر إليها كمسائل سيادية لا يجوز تداولها خارج القصور الملكية، ومع ذلك شكلت هذه المراسلات نواة الفكرة الدبلوماسية الحديثة التي تقوم على الحوار لفض المنازعات الدولية.

- الدبلوماسية في العهد الإغريقي (اليوناني):

يُجمع العديد من الباحثين على أن الجذور الأولى للدبلوماسية ظهرت في العالم الإغريقي، إذ كان الإغريق من أوائل الشعوب التي مارست نوعا من العلاقات المنظمة بين المدن التي كانت تشكل النظام السياسي في تلك الحقبة، ويستدل على ذلك بأن كثيرا من المصطلحات المتداولة حاليا في العلاقات الدولية ك: "التحكيم"، و"المصالحة"، و"المعاهدة"، و"السلام" هي في أصلها مصطلحات يونانية المنشأ.

²⁵ - حنان أخميس، تاريخ الدبلوماسية، مقال منشور على الموقع الإلكتروني:

www.sitromlive.org، تاريخ الاطلاع عليه 2025/05/01 على الساعة: 15:00 سا.

²⁶ - سهيل حسن فتلاوي، المرجع السابق، ص 63.

لقد تميّزت الدبلوماسية الإغريقية بطابعها العملي والمؤسساتي، إذ أقرّت المدن الإغريقية مبدأ التفاوض السلمي والحياد والتحكيم كوسائل لتسوية النزاعات، ومع ذلك لم تخل هذه الممارسات من الطابع النفعي والمكر السياسي، حيث كان الحوار والمفاوضة يستخدمان أحيانا كوسيلة لخداع الخصوم²⁷.

وقد مرّت الدبلوماسية عند الإغريق بثلاث مراحل متتالية تعكس الفكر الدبلوماسي لديهم²⁸:

1- مرحلة المنادين أو حملة الأعلام البيضاء: في هذه المرحلة كانت الدبلوماسية بسيطة وبدائية، إذ كان "المنادي" يرسل كمبعوث لإعلان رسالة محدّدة من المدينة إلى مدينة أخرى، وكان هؤلاء المبعوثون يتمتعون بحماية دينية بوصفهم تحت رعاية الإله "هرمس" الذي ارتبط بالسحر، المكر، الخيانة.

2- مرحلة الخطباء (المتكلمين): شهدت هذه المرحلة تطورا في مفهوم التمثيل الدبلوماسي، حيث أصبح يُختار من بين خطباء المدن وفلاسفتها لما يتمتعون به من قدرة على الإقناع والحكمة، وقد اكتسب العلاقات بين المدن طابعا أكثر تنظيما، وأصبحت الفصاحة أدوات فعالة في إدارة الصلح والمفاوضات.

3- مرحلة البعثات الدبلوماسية: تميّزت هذه المرحلة بانتقال الدبلوماسية من الطابع الفردي إلى الطابع المؤسسي، فبدأت المدن ترسل بعثات مكونة من أكثر من شخص، ووضعت قواعد لتنظيم مهامهم وحدود صلاحياتهم.

ومن خلال هذه المراحل، يمكن تلخيص أهمّ ملامح الدبلوماسية الإغريقية فيما يلي²⁹:

* اقتصرها على التمثيل المؤقت دون وجود بعثات دائمة.

* اختيار السفراء من قبل الجمعية العامة.

* التحفظ والريبة في التعامل مع المبعوثين.

* تكريس مبدأ الحصانة، حيث يُمنع المساس بالمبعوث الدبلوماسي أثناء أدائه لمهامه.

27 - نقلا عن الموقع الإلكتروني: thesis.univ.bisktu.dz تاريخ الاطلاع يوم: 2025/09/25 على الساعة 00:18 سا

28 - سهيل حسن فتلاوي، المرجع السابق، ص 89.

29 - بدر شنوف، المرجع السابق، ص 14.

* تحريم قبول الهدايا من قبل المبعوثين، تجنباً لشبهة الفساد، وفي حال الإخلال بهذا الالتزام كانت العقوبة تصل إلى الإعدام.

* المكافأة أو العقاب بحسب نجاح المبعوث أو فشله، إذ تقدّم له الهدايا عند النجاح ويعاقب عند الإخفاق، بما في ذلك ردّ النفقات التي صرفت على مهمته.

لقد وضعت هذه التجارب اللبّات التي استندت إليها الحضارات اللاحقة، لاسيما الرومانية في تطوير مفهوم الدبلوماسية.

- الدبلوماسية في العهد الروماني:

رغم التطور الكبير الذي بلغته روما في المجال القانوني، فإنّها لم تُعطِ الدبلوماسية في بدايتها المكانة التي كانت لها في الحضارات التي سبقتها، ويرجع ذلك إلى طبيعة العقلية الرومانية القائمة على القوة العسكرية والتوسع الإمبراطوري، فقد كانت روما تميل إلى فرض نفوذها وهيبتها على الشعوب المجاورة بالقوة أكثر من اعتمادها على أساليب الحوار أو الإقناع الدبلوماسي، ومن ثمّ كانت سياستها الخارجية تعتمد على مبدأ الهيمنة لا على مبدأ التعاون والتفاهم.

غير أنّ الموقف بدأ يتغيّر بالتدريج مع اتساع رقعة الإمبراطورية واحتكاكها بالحضارة الإغريقية في القرن الثالث قبل الميلاد، حيث استلهم الرومان كثيراً من الممارسات الدبلوماسية اليونانية، فاعترفوا لأوّل مرة بمبدأ الحصانة الدبلوماسية وشرعوا في تنظيم علاقاتهم الخارجية بطريقة أكثر رسمية، وقد أدّى هذا التفاعل إلى إدخال بعض المفاهيم الجديدة في القانون الروماني، الذي أصبح فيما بعد منطلقاً للعديد من المبادئ التي تبنتها العلاقات الدولية الحديثة.

ومن أبرز ملامح الدبلوماسية الرومانية نذكر³⁰:

* الاهتمام بالشكل والإجراءات أكثر من المضمون: حيث كان الرومان يولون أهمية كبيرة للطقوس والمراسيم الرسمية عند إبرام المعاهدات، وتسجيلها في السجلات العامة.

³⁰ - سهيل حسن فتلاوي، المرجع السابق، ص 92 وما بعدها.

* إدارة الشؤون الخارجية من قبل مجلس الشيوخ: الذي كان الجهة العليا المسؤولة عن قبول المبعوثين الأجانب والاستماع إلى مطالبهم قبل اتخاذ القرار بالموافقة أو الرفض.

* سلطة مجلس الشيوخ في تعيين السفراء الذين كانوا يختارون عادة من طبقة الشيوخ أو الفرسان.

* في حالة رفض الدولة الأجنبية اعتماد أحد السفراء الرومان، كان هذا يُعدّ إهانة تمسّ كرامة الإمبراطورية، وغالبا ما يؤدي إلى اندلاع نزاع أو حرب.

* عند انتهاء مهمة السفير وعودته، كان يقدم تقريرا مفصلا عن نتائج مفاوضاته، يعرض على مجلس الشيوخ للتصويت عليه.

* كانت روما تقيم مراسيم دقيقة لاستقبال المبعوثين الأجانب، تعكس الطابع البروتوكولي للدولة وتبرز عظمتها أمام ممثلي الدول الأخرى.

* في حال ارتكاب أحد المبعوثين الأجانب مخالفة على أراضيها، كانت روما تمتنع عن محاكمته بنفسها، بل تعيده إلى بلده الأصلي لتتولى محاكمته احتراماً لمبدأ الحصانة.

* إذا نشب نزاع مسلح بين روما والدولة التي ينتمي إليها المبعوث، كان يسمح له بمغادرة البلاد بسلام، حفاظاً على مكانته كممثل رسمي لدولة أخرى.

وبناء عليه، يمكن القول أنّ هذه الممارسات شكلت قفزة نوعية في التفكير الدبلوماسي إذ جمعت بين الطابع الرسمي والانضباط القانوني الذي اشتهرت به روما.

- الدبلوماسية في العصور الوسطى:

شهدت العصور الوسطى استمرار الطابع السري في الممارسات الدبلوماسية، حيث ظلت المفاوضات تدار خلف الأبواب المغلقة وتحاط بالتحفظ الشديد، وقد برز في هذه المرحلة نموذجان متميزان للدبلوماسية: الدبلوماسية البيزنطية التي اتسمت بالحيلة والدهاء السياسي حفاظاً على توازن الإمبراطورية، والدبلوماسية الإسلامية التي انطلقت في بدايتها بطابع سري فرضته ظروف الدعوة، ثم تحولت تدريجياً إلى دبلوماسية علنية قائمة على القيم والمبادئ الأخلاقية في التعامل مع الأمم الأخرى.

– الدبلوماسية البيزنطية:

ظهرت الدبلوماسية البيزنطية عقب انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين: إمبراطورية رومانية غربية عاصمتها ميلانو، وأخرى شرقية عاصمتها القسطنطينية، وقد وجدت الإمبراطورية البيزنطية نفسها محاطة بعدة قوى صاعدة، من بينها الدولة العباسية في المشرق والدولة الأموية في الأندلس، إضافة إلى الممالك الغربية المتحالفة مع بابا روما، مما فرض عليها تطوير أسلوب خاص في إدارة علاقاتها الخارجية.

ولمواجهة هذه التحديات، أنشأ البيزنطيون هياكل حكومية متخصصة تُعنى بتنظيم العلاقات مع الدول الأخرى، وأعدوا جهازا دبلوماسيا محترفا يضم نخبة من المبعوثين ذوي الخبرة، كما لجأوا إلى استخدام السفارات لأغراض تتجاوز التمثيل الرسمي لتشمل جمع المعلومات والتأثير في سياسات الدول الأجنبية، وهو ما جعل مفهوم الدبلوماسية يختلط مع الجوسسة .

وقد تميّزت الدبلوماسية البيزنطية بجملة من الخصائص³¹ من أبرزها اعتماد الدبلوماسية الدينية وسيلة لتوسع النفوذ الإمبراطوري، انتهاج سياسة إضعاف الخصوم عبر المساعدات المالية، إضافة إلى ترسيخ مفهوم الاحتراف الدبلوماسي القائم على المهارة والدهاء بدل المواجهة المباشرة، كما أولى البيزنطيون عناية كبيرة للمراسل البروتوكولات الخاصة باستقبال السفراء وإظهار هيبة الإمبراطورية أمام الوفود الأجنبية.

وتُعدّ هذه الممارسات انعكاسا للطابع السري والعملي الذي ميّز الدبلوماسية البيزنطية، إذ كانت تعتمد على التكتّم للحفاظ على توازن القوى في محيط معقّد مما جعلها نموذجا مبكرا للدبلوماسية القذرة التي تمزج بين الدهاء السياسي والسرية في الأداء.

– الدبلوماسية الإسلامية:

يعتبر العرب من بين الأمم التي مارست أشكالا مبكرة من الدبلوماسية السرية قبل الإسلام، إذ أسهمت حركة التجارة الواسعة التي ربطت شبه الجزيرة العربية بالمناطق المجاورة كبلاد الشام، واليمن وبلاد الفرس في إنشاء قنوات تواصل غير رسمية مكنت من إجراء المفاوضات وعقد الاتفاقيات التجارية التي حملت في طياتها بذور العلاقات الدبلوماسية.

³¹ – إيلاس توازي، المرجع السابق، ص 4.

ومع بزوغ فجر الإسلام، اكتست العلاقات الدبلوماسية بعدا جديدا وأهمية خاصة، بالنظر إلى طبيعة الدعوة الإسلامية التي كانت تقوم على التواصل الحضاري مع الشعوب الأخرى. في بداية الدعوة، اتسم هذا النشاط بالسرية نتيجة لما واجهه المسلمون من اضطهاد، ومعارضة، فكانت المراسلات والاتصالات محدودة النطاق وموجهة لأغراض الدعوة بعيدا عن الصدام، غير ان هذا الطابع لم يدم طويلا، إذ انتقلت الدبلوماسية تدريجيا إلى العلنية لتصبح وسيلة منظمة للتواصل والتفاوض مع الملوك بهدف تعزيز وتكريس السلم والتعاون ونشر مبادئ العدالة والاحترام المتبادل.

وقد استخدم فقهاء الشريعة الإسلامية مصطلح "السير" للدلالة على القواعد المنظمة للعلاقات الدولية في زمن السلم، وهي تعكس سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم الحكيمة في إدارة شؤون الدولة الإسلامية خارجا، سواء من خلال اختيار الرسل المؤهلين أو في أسلوب التفاوض الذي اتسم بالوضوح والدقة، أما في أوقات الحرب، فقد استخدم مصطلح "المغازي" للدلالة على القواعد التي تنظم العلاقات الدولية أثناء النزاع المسلح، كضوابط بدء القتال، إعلان الهدنة، تبادل الأسرى³².

كما رسخ الرسول صلى الله عليه وسلم في الممارسة الدبلوماسية قواعد متطورة ظلت نموذجا يحتذى به، إذ كان يستقبل الوفود استقبالا رسميا، ويمنحهم الحصانة والحماية، ويقدم لهم المساعدات اللازمة خلال إقامتهم، مما شكل نواة لمبدأ الحصانات والامتيازات الدبلوماسية.

أما على صعيد المراسلات الرسمية فقد استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم مصطلح الكتاب أو الرسالة للدلالة على الوثائق الدبلوماسية، وجاءت صياغتها وفق أسلوب دقيق، يبدأ بالبسملة، يليها اسمه وصفة النبوة، ثم مضمون الرسالة وتاريخها وختمها، وهو ترتيب يعكس التقليد البروتوكولي الحديث.

وفيما يتعلق بالمفاوضات، لم يكن مصطلح "التفاوض" مستخدما بمعناه الحديث، بل استعملت مفردات أخرى ك: "الجدال" و "الحوار"³³، وكلها تعكس منهج الإسلام في الاعتماد على الإقناع بدلا من القوة والإكراه، كما ميّز المسلمون بين الرسول والسفير، فالرسول يكلف بتبليغ الرسالة دون تغيير، بينما يُناط بالسفير مهمة السعي إلى الصلح، وهو تمييز دقيق يعكس نضح الفكر الدبلوماسي الإسلامي في وقت مبكر.

³² - يحي سعيدي، المرجع السابق، ص 337.

³³ - سهيل حسن فتلاوي، المرجع السابق، ص 70.

الدبلوماسية بين السرية والعلنية: من مفاوضات الغرف المغلقة إلى رحاب المؤتمرات

ومن خلال هذه الممارسات، يمكن القول ان الدبلوماسية الإسلامية أسست لمبادئ إنسانية سبقت الكثير من القواعد التي اعتمدتها الدبلوماسية الحديثة، إذ جمعت بين السرية الحكيمة في بداياتها بسبب ظروف الدعوة، والعلنية المنظمة بعد قيام الدولة لترسيخ الحكم.

وهكذا يتبين أنّ الدبلوماسية في العصور الوسطى كانت تتأرجح بين نموذجين متباينين دبلوماسية تقوم على السرية والمكر كما هو الحال في الإمبراطورية البيزنطية، وأخرى قائمة على المبادئ الأخلاقية ونشر السلم كما كرسها الإسلام في تعامله مع الأمم.

2.2 مرحلة الدبلوماسية العلنية:

شكلت نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث نقطة تحول جوهريّة في مسار الدبلوماسية، إذ بدأت الدول الأوروبية تتخلى تدريجياً عن الطابع السري الذي ميّز الممارسات الدبلوماسية القديمة، لتتبنّى أسلوباً أكثر انفتاحاً ووضوحاً في إدارة علاقاتها الخارجية. جاء هذا التحول نتيجة للمتغيرات السياسية والفكرية التي صاحبت نشوء الدولة الحديثة واتساع نطاق العلاقات بين مختلف الفواعل الدولية، ممّا جعل العلنية وسيلة لترسيخ الثقة وتعزيز التعاون بين الدول.

- تطور الدبلوماسية من القرن الخامس عشر إلى مؤتمر فيينا 1815:

يُجمع فقهاء القانون الدولي العام على أنّ بدايات التمثيل الدبلوماسي الدائم تعود إلى الجمهوريات الإيطالية في منتصف القرن الخامس عشر، غير أنّ تحديد الموضع الزمني والمكاني الدقيق لظهورها ظلّ محلّ تباين بين الباحثين، فقد ساهم التنافس بين المدن الإيطالية، خاصة البندقية وفلورنسا في تطوير آليات التواصل والتمثيل السياسي مع الدول المجاورة، ممّا مهّد لنشوء فكرة البعثات الدبلوماسية الدائمة التي انتقلت لاحقاً إلى فرنسا وبقية الدول الأوروبية.

وقد شكلت معاهدة وستفاليا لسنة 1648 محطة مركزية في تاريخ العلاقات الدولية، إذ أقرت مبدأً التوازن الأوروبي وسعت إلى الحدّ من النزاعات المسلحة، وهو ما أدّى إلى تزايد البعثات الدبلوماسية بين

الدول، هذا النشاط المكثف أفرز بدوره إشكالات تتعلق بمكانة المبعوثين الأجانب وحقوقهم، مما دفع الدول إلى إقرار نظام واضح للحصانات والامتيازات الدبلوماسية حماية لوظائفهم³⁴.

واتسمت الدبلوماسية خلال هذه الحقبة بعدة سمات بارزة³⁵، فقد أصبحت قواعدها أكثر تنظيمًا ووضوحًا، خاصة فيما يتعلق بالامتيازات الدبلوماسية، كما ظل السفير يعدّ ممثلًا شخصيًا للمالك أو الحاكم لا للدولة ككيان قانوني، وهو ما يعكس الطابع الشخصي للسلطة في تلك الحقبة الزمنية، ومع ذلك لم تخل الممارسة الدبلوماسية من مظاهر سلبية، أبرزها التدخل في الشؤون الداخلية للدول المستقبلية، وتنامي ظاهرة التجسس تحت غطاء العمل الدبلوماسي.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه المرحلة مثلت الانتقال الحقيقي من الدبلوماسية التقليدية إلى الدبلوماسية المنظمة، إذ بدأت تتبلور ملامح العمل المؤسسي، وبرزت الحاجة إلى تنظيم القواعد التي تحكم العلاقات بين الدول بشكل أكثر وضوحًا، وهو ما مهّد الطريق إلى مؤتمر فيينا سنة 1815 الذي أسس للنظام الدبلوماسي القائم على التوازن والاعتراف بين الدول ذات السيادة.

- تطور الدبلوماسية من مؤتمر فيينا 1815 إلى الحرب العالمية الأولى:

شهدت الفترة الممتدة من مؤتمر فيينا سنة 1815 إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى تطورًا نوعيًا في المفاهيم والممارسات الدبلوماسية، حيث انتقل التمثيل الدبلوماسي من الطابع المؤقت إلى الاستقرار والاستمرارية، وأصبح وسيلة أساسية لمعالجة القضايا الدولية وتسوية العلاقات بين الدول بعيدًا عن ساحة الحرب، كما بدأت البعثات الدبلوماسية تتخذ طابعًا مهنيًا أكثر تنظيمًا، وابتعد المبعوثون تدريجيًا عن ممارسات التجسس التي كانت سائدة في المراحل السابقة، وركزوا جهودهم على استخدام الوسائل السياسية لتقوية العلاقات بين الدول.

وقد شكل مؤتمر فيينا لسنة 1815 نقطة تحوّل جوهريّة في هذا السياق، إذ أرسى مجموعة من القواعد المنظمة للعمل الدبلوماسي، خاصة ما يتعلق بترتيب المبعوثين وأسبقياتهم وإجراءات اعتمادهم، كما ساهم في توحيد الأنظمة الدبلوماسية بين الأنظمة الأوروبية بعد أن كانت تخضع لتقاليد مختلفة، تلاه مؤتمر

³⁴ - محاضرات منشورة على الموقع: thesis.univ-ktu-bis.dz، تاريخ الاطلاع عليه: 2015/09/02، على الساعة 18:00 سا

³⁵ - محي الدين جمال، المرجع السابق، ص 16.

إيكس لاشابيل سنة 1918، الذي أكد على مبادئ التشاور بين الدول الكبرى في إدارة الشؤون الدولية، مما عزز الطابع المؤسسي للعلاقات الدبلوماسية.

ورغم ما تحقق من تنظيم ووضوح في القواعد الدبلوماسية، فإنّ الدبلوماسية في هذه المرحلة لم تتمكن من تحقيق الاستقرار الدولي، فقد ظلت العلاقات الدولية خاضعة لتوازنات القوة بين الدول الكبرى، واستمرت النزعة التوسعية والهيمنة في توجيه السياسات الأجنبية، مما جعل الأمن والسلم الدوليين رهينين بإرادة القوة العظمى³⁶.

ومن أبرز الصفات الدبلوماسية في هذه الفترة شهدت تحولا من الدبلوماسية الشخصية إلى الدبلوماسية المؤسسية التي تمثل السلطة الحاكمة لا الشخص، كما اتجهت نحو قدر من الاستقرار مع تراجع ملموس للدور التجسسي للسفراء، ومع ذلك ظلت السرية تغطي على النشاط الدبلوماسي، إذ اقتصرَت المشاركة في صنع القرار الخارجي على الحكومات فقط، بينما جرى تهميش الرأي العام، والمنظمات، مما جعلها دبلوماسية ثنائية الأطراف.

ويلاحظ أن هذا الطابع السري رغم أنه وفر قدرا من المرونة في إدارة الأزمات الدولية، إلا أنه ساهم في تعميق الشكوك بين الدول، ومهد لاحقا لظهور انتقادات لهذا النموذج، حيث بدأت الدعوات تتصاعد نحو دبلوماسية أكثر علنية وشفافية تواكب التحولات الطارئة على المجتمع الدولي.

- تطور الدبلوماسية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى:

شهدت الدبلوماسية في أعقاب الحرب العالمية الأولى تحولا نوعيا في مضمونها وأدواتها، حيث انتقلت من أسلوبها التقليدي إلى نمط جديد أكثر انفتاحا وشفافية، عرف بالدبلوماسية العلنية، وقد جاءت هذه النقلة نتيجة جملة من التطورات والتغيرات السياسية، والاجتماعية والثقافية والتقنية التي عرفها العالم آنذاك، إذ ساهم انتشار وسائل الإعلام، وثورة الاتصالات والمواصلات، وتزايد الوعي الشعبي في دفع العمل الدبلوماسي نحو المزيد من العلنية والمشاركة الواسعة في صنع القرار الخارجي.

وبعد الحرب العالمية الثانية، توسعت الدائرة الدبلوماسية بشكل غير مسبوق، حيث لم يعد النشاط الدبلوماسي مقتصرًا على عدد محدود من الدول، بل أصبح يغطي مختلف مناطق العالم، وهو ما ألقى على

³⁶ - سحي سعيدي، المرجع السابق، ص 340.

عائق الممثلين الدبلوماسيين مسؤوليات أكبر في متابعة الأحداث الدولية، والمساهمة في صياغة السياسات الخارجية³⁷.

وقد تأثر هذا التحول بعدة عوامل أساسية³⁸، أبرزها تصاعد وتنامي دور الرأي العام العالمي الذي فرض سيطرة غير مباشرة على صناع القرار، إلى جانب التحولات السياسية والاجتماعية العميقة التي عرفها المجتمع الدولي بعد انتهاء الاستعمار وظهور الدول المستقلة حديثاً، فضلاً عن ظهور دور المنظمات الدولية وفي مقدمتها منظمة الأمم المتحدة، التي أسست لمرحلة جديدة من الدبلوماسية متعددة الأطراف (جماعية)، كما ساهم اتساع الاهتمام بالقضايا المشتركة: - كحقوق الإنسان، البيئة، الصحة، الهجرة، الإرهاب الدولي... في إعادة رسم أجندة العمل الدبلوماسي لتشمل مجالات جديدة لم تكن ضمن اهتماماته الكلاسيكية.

أما الدبلوماسية العلنية، فهي الأسلوب الذي يقوم على إعلان المفاوضات، والأهداف، والاتفاقيات على الرأي العام، بخلاف ما كان معمولاً به في الدبلوماسية السرية، وقد جاء هذا التحول استجابة لضرورات الشفافية، والرغبة في إخضاع السياسة الخارجية لنوع من المساءلة الشعبية، كما يضمن انسجامها مع المبادئ الديمقراطية. ومع التطور الذي تشهده الساحة الدولية في مختلف المجالات أصبحت الدبلوماسية العلنية اليوم تشمل مختلف أدوات التواصل؛ من المؤتمرات الدولية إلى القنوات الإعلامية والمنصات الرقمية، مما جعلها أداة رئيسية في بناء الثقة وتعزيز التعاون الدولي.

وقد رافق هذا التطور صدور مجموعة من الاتفاقيات الدولية التي كرست القواعد النازمة للعلاقات الدبلوماسية، وفي مقدمتها اتفاقية فيينا للعلاقات الدبلوماسية لعام 1961، واتفاقية فيينا للعلاقات القنصلية لعام 1963 ثم اتفاقية فيينا للبعثات الخاصة لسنة 1969، التي أسست الأسس والقواعد القانونية الحديثة للدبلوماسية المعاصرة.

الخاتمة:

من خلال تتبع الأطوار التاريخية للدبلوماسية عبر العصور المختلفة، يتبين أنّ النظام لم يكن مستقرّاً، بل عرف تغيرات جذرية في طبيعته ووظائفه تماشياً مع التغيرات التي طرأت على نية المجتمع الدولي، فبعد

³⁷ - كمال أوقاسين، قانون العلاقات الدبلوماسية والقنصلية، مجلة الصراط، كلية العلوم الإسلامية، جامعة يوسف بن خدة، الجزائر 1، ع.9، 2001، ص 312.

³⁸ - إيلاس توازي، المرجع السابق، ص 6.

أن كانت الدبلوماسية مقتصرة على الملوك والحكام، تمارس في سرية تامة، وتهدف أساسا إلى خدمة المصالح السياسية الضيقة، أصبحت ممارسة مؤسساتية علنية تركز على مبادئ التعاون والمصالح المشتركة.

لقد أفرزت الحروب العالمية، وما تلاها من تحولات سياسية، واقعا دوليا فرض نفسه جعل من العلنية في العمل الدبلوماسي مطلباً ضروريا لضمان الشفافية والثقة في العلاقات بين مختلف الفواعل الدولية، وتحقيق رقابة مجتمعية على القرارات التي تمس السلم والأمن الدوليين، فالإعلام، والمنظمات الدولية، والرأي العام، باتت تشكل اليوم أطرافاً أساسية ومؤثرة في بناء وصياغة السياسة الخارجية، الأمر الذي غير جوهر الدبلوماسية من نشاط مغلق إلى ممارسة مفتوحة (علنية، مكشوفة) خاضعة للرقابة والمساءلة.

وعليه، يمكن القول إنّ الدبلوماسية الحديثة لم تعد مجرد وسيلة لحماية المصالح الوطنية، بل أصبحت ركيزة أساسية في بناء النظام الدولي المعاصر القائم على احترام القانون الدولي العام.

وبناء على النتائج السابقة نقترح التوصيات التالية:

- تكريس سيادة الدبلوماسية العلنية من خلال تجسيد ثقافة الشفافية في إدارة العلاقات الخارجية، مع ضبطها بضوابط قانونية تحافظ على الأمن والسلم الدوليين.
- تفعيل دور الإعلام الدبلوماسي كوسيلة رئيسية لتوضيح مواقف الدولة في مختلف القضايا الدولية.
- إعادة هيكلة التكوين الدبلوماسي ليتماشى مع متطلبات الدبلوماسية الحديثة من خلال إدراج وحدات خاصة بالدبلوماسية العلنية.
- العمل على تحسين الإطار القانوني الدولي لضبط ممارسات الدبلوماسية العلنية، بما يحقق التوازن بين حق الشعوب في المعرفة ومتطلبات السرية.